

القسم الثامن

الامير عبد القادر الجزائري

زعيم وأمير وجندى وقائد ثورة

« إذا صقلت بارق سيفي »
« وأخذت بالقضاء يدي »
« رددت الانتقام على أعدائي »
« وفرضت القصاص عليهم »
نشيد موسى النبي في
سفر التثنية

رأيت كيف تلقى العالم الإسلامى بوجوم انباء الاعتداء الفرنسى
على الجزائر ، وكيف احتات فرنسا السواحل والناس فى شغل عن
هذا كائن الامر لا يعنيه ، فألقى عبء الجهاد على أهل الجزائر ،
يقاتلون ويقتلون ويشردون . والقطر الجزائرى ساحل ممتد

الأطراف على مسافات شاسعة ، فأصبح لكل مدينة على البحر
جبهة قتال ، قائمة بذاتها .

ففي جبهة مدينة الجزائر زحف القائد الفرنسي إلى الداخل ،
واحتل مدينة البليدة وقدم أهلها الطاعة بين يديه ، ولكن دعوة
الجهاد والدفاع عن الوطن انتشرت بين القبائل في الجبال
المحيطة ، فتجمعت الجموع ، وزحفت إلى القتال ، وفي اليوم الثالث
من احتلال المدينة اقتحمت قوات المجاهدين أسوار البليدة ،
وهزمت جنود فرنسا ، فاضطر القائد العام أن ينسحب مع من بقي
من جنده عائداً إلى الجزائر ، حيث دعى إلى بلاده ، فأثر أن يعيش
بأسبانيا وجاء قائد آخر أخذ يدبر الأمور ، لاتمام الاحتلال ، تارة
بالسيف وأخرى بالخديعة ، وبذل الوعود .

في هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى سلطان مراکش ، واجتمع
أهل العقد والحل من سكان الجزء الغربي ، وأرسلوا وفداً إليه ،
يطلبون معونته ، فأجابهم إلى مطلبهم ، وبعث بأمر من أولاد عمه ،
فلقيه الناس بالطاعة ، ووصلت طلائعه إلى ناحية مليانة شرقاً ،
واسكن فرنسا أسرعت وكلفت ممثلها لدى البلاط الشريف أن يحتاج
على هذا التدخل ، فاضطر سلطان مراکش أن ينسحب بجنوده ،
وأن يستدعى ابن عمه إليه ويترك أمر الجهاد لأهل البلاد .

كانت الدعوة إلى الجهاد عامة يشعر بها الناس كافة : من عرب وبربر ، ومن أهل الحضر ، وأهل الجبال والبادية ، وكانت الحرب في كل ناحية قائمة ولكن كانت تنقص الدعوة القيادة المنظمة التي تجمع الشمل ، وتنظم الجهود ، وتحرك المشاعر ، وتدفع هذه القوى الروحية نحو الغاية الكبرى .

ولقد شامت العناية الإلهية أن تختار هذا القائد من جهة وهران على الحدود المراكشية ، ففي سنة ١٨٣٢ قامت سرية من المجاهدين عقد لواؤها للسيد عبد القادر بن زيان بحركة كشفية ، حول أرباض المدينة وفي موضع يقال له خنق النطاح التقت السرية بفصائل العدو واشتبكت معها في معركة تعرضية ، وفي اليوم التالي أدركتها حشود المجاهدين فدخلت القتال متراصة زاحفة ، فانتصرت انتصاراً باهراً وقرر العدو منهزماً ، متراجعاً إلى مدينة وهران .

وفي وسط المعركة ظهرت مخايل النجاة والبطولة ، والقوة والفتوة على الشاب عبد القادر بن السيد محي الدين الذي ما انفك مع والده يحرض المسلمين على الجهاد ، ويبري المقاتلين بمقاعد للقتال كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد عرف الناس فيه الحزم والعزم والعقل السليم والصبر في القتال ، فخامت المعركة فإذا بالشجاعة

وقوة البأس تظهران عليه ، وهو يخترق الصفوف ويباشر القتال بيده ، لنصرة دين الله . وبينما هو يخوض وسط المعركة تحامل عليه فارس من فرسان فرنسا برمح ، فإذا بالطعنة تمر تحت إبطه الأيسر فشد عليه عبد القادر بعزمه وقوته ، وهوى بسيفه على الفارس ، فإذا بالسيف يقطع كتف الفارس نصفين ، فكانت آية من آيات الله تناقلها الناس ، وسرى ذكرها بينهم . وتلقى جواده ثمانى طعنات ، ثم أصيب بالرصاص تحته ، فنزل وترجل واستمر يقاتل في مواجهة العدو ، وهو على قدمه ثابتاً في مواقعه ، حتى جاء النصر من عند الله ، وتقهقر العدو منهزماً ، لا يلوى على شيء ، وبات المسلمون ليلتهم في التهليل والتكبير .

هذه بداية القائد الشاب بطل الاستقلال الجزائري ، وصاحب المواقف الخالدة ، بين سنتي ١٨٣٢ و ١٨٤٧ ، الذي تمثل في عبقريته عراك أمة وكفاح شعب يقاتل في سبيل مثله العليا والذي أمضى ستة عشر عاماً في الحروب لم يدع فيها القتال والتصادم والكر والفر فاعاً عن حومة الدين ، وعن حرية الوطن الشهيد وظهرت فيها صفاته وميزاته للقيادة والزعامة ، وضرب للناس مثلاً بتمسكه بالمبادئ والأهداف التي قام من أجلها ، فأسبغ عليها عملاً متواصلاً لا يحيد عنه ولا يرجع

وبرزت نفسه القوية التي لا ترهبها الأهوال والنكبات ، ولا تغيرها الانتصارات المتتابعة ، ولا تنقص من حماسها النكبات والهزائم .
ستة عشر عاماً من المعارك المتواصلة ، لا تتخللها غير فترات قصيرة من السلم والراحة ، أفردها للتنظيم والإنشاء ، والدعوة إلى الله ، والعمل لبناء دولة ناشئة ، القيت أعباؤها عليه بأكملها ، إذ واجه مشاكل السياسة مع مصاعب الحروب ، وعالج الهزائم والدسائس بنفس عالية ، فيها قبس من أخلاق السلف الصالح ، وفيها تلك النواحي القوية التي أفرغها الإسلام على قواده وزعمائه من قوة أمام الأخطار ، وصلابة في الحق ، وتمسك بالعروة الوثقى مع تواضع ، وصبر على المكاره ، وحوادث الزمن .

كان هذا في وقت عصيب واجهت فيه الجزائر أكبر محنة في تاريخها ، يوم دعيت وحدها للدفاع عن أراضيها ، ويوم ضعفت النفوس ، وتفرقت القوى بين عناصر متشاحنة ، وقبائل متنافرة . هنا ظهرت شخصية عبد القادر كمنشئ دولة ، وقائد جيش ، وزعيم أمة .

إن عظمة عبد القادر لا تظهر في انتصاراته وحدها ، وإنما في تغلبه على متاعبه ، وفي شجاعته وسط الهزائم ، والدعوة إلى الانشقاق والخيانة وفي مواجهة دعاة الويل والهزيمة . وزمرة

المنافقين ومن لازمهم) هنا تعلو حيوية عبد القادر على الحوادث حينما تراه مجاهداً ، لا تهمد عزيمة وسط الأخطار ، ومكائد العدو والبحر مغلق أمامه ، والعالم الإسلامى يغط فى نومه ، فلا يخفف عنه إلا ذكر الله ، والدعوة إليه وإيمانه بأن إرادة الشعب الجزائرى قد تمثلت فى إرادته ، وإن الله قد اختاره لعمل كبير ، هو انتقاذه هذه الأمة وقيادتها إلى الجهاد فى سبيل الله.

تقلب صفحات تاريخه ، وتسمع أقوال الخصم عنه ، وتنصت لنظمه وشعره ، وتقرأ رسائله ، فتلمس رجلاً قد أوتى حظاً من الإيمان ، والثقة بالله ، مما جعله فوق المستوى العادى للرجال كان من إختارهم المولى جل وعلا لعمل خالد ، فقد كان يعلم بأن أمامه دولة قوية ، قد أفرغت فى القتال كل قوتها ، وصمدت على فتح بلاده ، واستعانت بما أخرجته الفن والعلم فى الحروب ، وقد خرجت من تجارب حروب ومعارك ، ومع ذلك وقف وقفته ، وكان يشعر بأن أعداءه فى الداخل لا يقلون خطراً عن أعداء الوطن ، فتقبل بالرضا حكم الأقدار ، وقاد بلاده هذه السنين ، وهو واثق من نفسه لا معين ولا حليف له ولا أمل لديه إلا همة السيوف التى خرجت من أغمارها ، ووقفت معه .

نعم في وسط المكائد والهزائم والدعوة إلى الهزيمة تعلو قوة عبد القادر ، فتخلق من الهزيمة قوة ، وتدعو إلى الله ، وتعمل على جمع الشمل فيقود الأمة الجزائرية إلى كفاح طويل إلى المجد .

ذلكم هو بطل الاستقلال الجزائري وأول مسلم تلقى بصدوره حلقات الهجوم المضاد ، الذي شنه الغرب علينا لانتزاع أراضينا . حينما أكتب عنه أستعيد ذكرى حادثين أثرا في حياتي : أما الأول فصورة زيتية للأمير عبد القادر رأيته في السوق الخيرية التي أقيمت بحديقة الأزبكية ، انصرة المجاهدين من أهل طرابلس ، لما اعتدت إيطاليا على أراضهم . رأيته على جواده ، وقذائف المدافع تنفجر من حوله ، فوقفت مأخوذاً ، وكنت في العاشرة ، فإذا بصاحب المؤيد الشيخ علي يوسف يحدثنا عن بطل الجزائر ، ومن ذلك اليوم انطبعت في نفسي صورة القائد الزعيم وحرصت أن أقرأ عنه ، وأتعرف إلى معاركه وأيامه .

أما الحادث الثاني : فيوم وقفت على قبره تحت قبة سيدي محي الدين ابن عربي بمدينة دمشق . لقد كان الشوق إلى زيارة الضريحين شديداً طوال سفرى من أنقرة ، ولما تم اللقاء ، وقفت أمام هذا القبر أستمطر الرحمة على بطل الاستقلال ، ومرت أمامي صفحات الجهاد وأسماء البلاد في الجزائر :

وهران . قسنطينة . تلمسان . المعسكر . مستغانم . البليدة .
حليانة ، وذكريات المعارك الخالدة في رأس العين ، وخنق النطاح
ووادى الزيتون ، وغيرها من مواقفه .

وفي باريس صورتان كبيرتان ، تمثلان عراك الأمير وجنود
فرنسا ، وتقتحم الصفوف أعرفهما . قيل أن الأمير وقف أمامهما
عند زيارته للعاصمة الفرنسية وقال : أراكم تمثلون جنودنا منهزمة ،
فها لا نظرتهم ورسمتم المعارك الكبيرة ، التي ولى فيها جنودكم الأدبار .
وفي قصر العجزة حيث متحف الجيش الفرنسى نجد الآثار
والأعلام والأسلحة من بقايا حروب عبدالقادر ، لقد كنت ألمسها
ثم أقبل يدي التي لمستها وانحنى أمامها ، وأقول هل أعيش لأرى
الجزائر حرة ، وقد خلعت استعبادها ، وأسمع أناشيد الأمير من
مقصورته الثابتة ترتل في مدارس القطر الشهيد .

ونحن لنا دين ودنيا تجمعنا
ولا نفخر إلا ما لنا يرفع اللوا
وانا سقينا البيض في كل معرك
دماء العدى والسمر أسعرت الجوى

• • •

أريد أن أشرح معاركه ، وأكتبها ليقرأها أبناء مصر العربية ،

وإيروا آيات المجد والبطولة، ولكن الزمن يسير بخطوات سريعة ،
وأريد أن أحدثهم عن يوم تجمعت فيه أحكام القدر ، فالتقى البطل
سلاحه ، واستأمن للخصم ، على أن يذهب للاسكندرية ، فحنثت
فرنسا بإيمانها وموائيقها وعهودها ، وقادته أسيراً إلى فرنسا حيث
أمضى مع والدته العجوز وأهله خمس سنوات في الأسر ، يحن فيها
إلى البلاد التي أراد دفع الشر عنها ، ثم أطلق سراحه ، فإذا طريقه
إلى دار الخلافة حيث يلتقي السلطان عبد المجيد العثماني . وبعد إقامة
يسيرة في بروسة يذهب إلى دمشق ، وهناك يعيش حتى يرقد رقدته
ليترحم عليه محبوه . أما أنا فقد قرأت حين وقفت على ضريحه قوله
تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم
في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)

(آل عمران)

ذلك لإيماني أن أمة تنجب عبد القادر لن تموت ، بل ستبعث
بعثاً يهز الأرجاء ، لأن الدرس الذي ألقاه علينا كان درساً يحرك
النفوس ، ويدفع للعمل لقرون قادمة . إنه قوة من قوى الذات
الإلهية التي بعثها لخير الناس ولما خطه الله في سجل القدر ، من أن
تحيا الأمة الجزائرية ، لتعود إلى أيامها الأولى ، أيام
المرابطين والموحدين .